أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي
(دراسة مقارنة)

الدكتور أحمد إدريس الطعان
كلية الشريعة
جامعة دمشق

الملخص

في هذا البحث المتواضع أردت أن أقف عند سؤال الأخلاق في الفلسفة الغربية منذ نهضتها الأولى في العهد اليوناني إلى العصر الحديث، وعصر الأنوار؛ لإلقاء الضوء على مكونات العقلية الغربية – وبالأخص السياسية منها – في النظرة إلى الآخر، لأن الموقف الفلسفي في الغالب هو الذي يشكل الموقف السياسي، فضلاً عن الموقف الديني، ولا شك أننا ندرك أن الدين هو الرافد الأول للفلسفة، فهما يتعاضدان في تشكيل مواقف الأمم، وخصوصاً المواقف الكبرى والمصيرية، ولكي تتضح الصورة جلية فقد لجأت إلى المقارنة المختصرة بين الفلسفة الغربية والرؤية الإسلامية، فكان منهج البحث منهجاً تاريخياً استقرائياً مقارناً، وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة :

المبحث الأول : هوية الإنسان بين الإسلام والميثاق الدولي.

المبحث الثاني : مصير الأخلاق في الفلسفة الغربية.

المبحث الثالث : سؤال الأخلاق في الرؤية الإسلامية.

هذا وأسأل الله عز وجل الهداية والرشاد والتوفيق والسداد في القول والعمل.

المقدمة:

الحمد لله الذي أكرمنا بنور الهداية، وأخرجنا من ظلمات الغواية، وجعل لنا في كلّ شيءٍ آية، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم صلاة دائمة بلا نهاية، وبعد :

يمر العالم اليوم بأزمة كارثية على مستوى السياسة العالمية، حيث تتحكم القوى الكبرى في مصير الإنسانية بشكلٍ لم يسبق له مثيل في التاريخ، وأنشأت هذه القوى المتحكمة اختلالات في التوازن الدولي جعل البشرية تسير في طريقها إلى مصير مجهول، والواقع أن الإنسان أحياناً يقف مستغرباً ومتسائلاً : لمَ كل هذا الظلم الذي يجري في العالم من الأقوياء للضعفاء، هل الإنسان يحمل في داخله كل هذه القسوة حتى أصبح حقاً قلبه كالحجارة أو أشد قسوة ؟ فلا تفتح قناة إخبارية حتى تفاجئك مظاهر القتل والدماء تسيل في كل مكان من العالم.

من وجهة نظري المتواضعة فإني أعتقد بأن الغرب[1] هو وراء الكوارث الحاصلة في العالم اليوم، لأنه هو المالك لزمام الحضارة والقوة في هذه الفترة وأعني الحضارة المادية، وإن ما نراه في العالم ليس له إلا سبباً واحداً هو الظلم – بكل ما تعنيه هذه الكلمة – الاحتلال، والاستبداد، والقمع، والقهر، والفقر، والجوع، كل هذا يتسبب فيه الغرب في الدول الفقيرة والنامية من أجل أن يتربع على عرش الرفاهية، ولا شك أن حكامنا العرب في غالبهم حريصون على مصالحهم وكراسيهم أكثر من حرصهم على شعوبهم، ولذلك فهم في صف الاحتلال وفي صف المستعمر، بل إنهم يخدمونه أكثر مما يخدم نفسه في سبيل أن يحفظ لهم مراكزهم وعروشهم.

ويتساءل الإنسان مرة أخرى ألا يحصل ولو بالمصادفة ولا مرة واحدة أن يصل إلى مركز القرار في أمريكا مثلاً أو أوربا من السياسيين الكبار – الرؤساء مثلاً – من يملك قلباً رحيماً، ويشعر بمشاعر الإنسانية فيسعى لتخليصها من هذا الواقع المؤلم والمستقبل البائس؟ قد يبتسم القارئ لسذاجة التساؤل، ولكن الحقيقة أن هذا سؤال في صميم الإنسانية، ولكننا نسيناه لطول عهد الجبروت، وتراكم الذكريات اليائسة، والنكبات المؤلمة! انظر إلى التاريخ المعاصر للأوربيين والأمريكيين تجد أن غالبية حكامهم ممن حرصوا على إيقاع مزيد من الظلم بالدول الفقيرة والمستعمرة، ومزيد من الامتصاص لثرواتها ومواردها، والطيب فيهم – وإن كانت السياسة نقيض الطِّيبة كالليل والنهار – من تشغله أزمات بلاده الداخلية فلا يجد الوقت كافياً والفراغ مواتياً لإلحاق الأذى بالدول الضعيفة، والإسهام في دفعها إلى الوراء عشرات السنين.

---

(1) لا أعني الشعوب الغربية وإنما المراد هو السياسات الغربية، والاتجاهات اليمينية المتطرفة المشبعة بأخلاق الكراهية والعنصرية.

إلا أن العجب يزو ل إذا علمنا أن من يصل إلى مراكز القرار في أوربا وأمريكا يكون قد رُبي تربية يكاد يستحيل معها أن ينظر بمنظار الأخلاق الإنسانية إلى العالم من حوله لأن قراءاته في أثناء الاستعداد، وثقافته التي تتكون في أثناء التحصيل والتفوق تكون محكومة باتجاهين لا بدَّ منهما:

الأول: التربية الفلسفية والتاريخ الفلسفي.

الثاني: التربية السياسية والتاريخ السياسي والعسكري.

وكلا هذين الاتجاهين - للأسف الشديد- في الغرب يعمقان الكراهية في نفس الإنسان، ويسقطان من حسابه القيم والمعاني الإنسانية، ويدفعانه في طريق الوحشية والهمجية. وهو ما نجد آثاره في الواقع العالمي اليوم، بل نحن – المسلمين - نكتوي بناره، ونتلوى في سعاره.

وفي هذا البحث المتواضع أردت أن أقف عند سؤال الأخلاق في الفلسفة الغربية منذ نهضتها الأولى في العهد اليوناني إلى العصر الحديث وعصر الأنوار، لإلقاء الضوء على مكونات العقلية الغربية – وبالأخص السياسية منها – في النظرة إلى الآخر، لأن الموقف الفلسفي في الغالب هو الذي يشكل الموقف السياسي فضلاً عن الموقف الديني، ولا شك أننا ندرك أن الدين هو الرافد الأول للفلسفة فهما يتعاضدان في تشكيل مواقف الأمم، وخصوصاً المواقف الكبرى والمصيرية، ولكي تتضح الصورة جلية فقد لجأت إلى المقارنة المختصرة بين الفلسفة الغربية والرؤية الإسلامية فكان منهج البحث منهجاً تاريخياً استقرائياً مقارناً، وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: هوية الإنسان بين الإسلام والميثاق الدولي.

المبحث الثاني: مصير الأخلاق في الفلسفة الغربية.

المبحث الثالث: سؤال الأخلاق في الرؤية الإسلامية.

المبحث الرابع: بين التسامح والقوة.

هذا وأسأل الله عز وجل الهداية والرشاد والتوفيق والسداد في القول والعمل.

المبحث الأول

هوية الإنسان بين الإسلام والميثاق الدولي

من الإنسان نبدأ، فالإنسان هو محور هذه الحياة ومنطلقها، وهو المخلوق المكرم، والمفضل، **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)** [سورة الإسراء آية 70] والمسوَّد، والمميز بالعقل، وهو يمكن أن يرتفع بنفسه ليقارَن بالملأ الأعلى، في مقعد صدق، ويباهَى به الملائكة. كما يمكن أن ينحط بنفسه فيصبح أدنى من البهائم **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)** [سورة الأعراف آية 179].

هذا الإنسان هو خليفة الله في الأرض **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** [سورة البقرة آية 30] وهذا الإنسان المكرم متَّعه الباري عز وجل بحقوق لا يحق لأحد أن يعتدي عليها أو يهضمها، وعليه واجبات لا بدَّ أن يزاولها، بعكس ما يحصل في العصر الحديث حيث يُرفع شعار حقوق الإنسان، ويُغض الطرف عن واجباته، ويصفق كثير من المسلمين لهذا الشعار -حقوق الإنسان-، دون أن يسألوا أنفسهم من هو الإنسان صاحب هذه الحقوق، وما مفهوم الإنسان عند من شرع لهذه الحقوق؟ وما مفهوم الحق في منظور المشرعين لهذا المبدأ، وما الخلفية الفكرية والفلسفية التي أنضجت هذه المبادئ، وأثمرت هذا الشعار؟

إن الإنسان المقصود في المبدأ العالمي المطروح في الهيئة الكبرى لهذا العالم ليس هو نفسه الإنسان المقصود في منظور الإسلام، بل ولا في الشرائع السماوية كلها، الإنسان المقصود في الميثاق العالمي هو الإنسان المادي الذي لا يؤمن بإلوهية ولا وحي ولا غيب ولا يوم أخروي يقف فيه الناس للجزاء.

إنه الإنسان المادي، الآلة الميكانيكية الخالية من أي بعد ميتافيزيقي أو روحاني، إنه الإنسان الذي تقف حدود عقله في داخل هذا الكون المنظور المحسوس، وهو الإنسان الذي تقف حدود أمانيه ورغباته في داخل هذه المادة المتلاشية، وهو الإنسان الذي لا يطمع في مستقبل آخر وآمال أخرى خارج هذه الأرض وخارج حدود هذا الكون.

بينما في إسلامنا فإن الإنسان هو المؤمن بالغيب وبالله الواحد الأحد، وبالعالم الآخر، ويعدُّ حياته في هذه الدنيا هي الفصل الأول من الحياة التي لن تتم إلا بإسدال الستار على عالم التكليف، والانتقال إلى عالم الجزاء. قال عز وجل: (ألم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [سورة البقرة آية 1 -5] وفي الميثاق العالمي لحقوق الإنسان يعدُّ الإنسان سيد الكون، ويده هي اليد الطولى فيه، له أن يتصرف فيه كيف يشاء، وبالحدود التي يوحي بها إليه عقله وضميره، ولذلك فهو يلوث البيئة، ويستنسخ البشر، ويجن البقر، ويدفن النفايات النووية في البلدان الفقيرة، ويلوث البحار، ويعبث في الكون كيفما يشاء، بينما في الإسلام فإن الإنسان ليس سيداً للكون، وإنما هو سيد في الكون، والفارق بين الأمرين عظيم، فكونه سيداً للكون يعني أنه هو المتصرف فيه، والمالك له، أمَّا حين يكون مسوداً في الكون فهو بمنزلة الوالي المكلف بتصريف شؤون ولايته طبقاً لتعاليم مولاه، ولا يحق له أن يصدر قراراته بنفسه وإنما ينفذ قرارات مولاه.[2]

أمَّا المجتمعات الغربية ودعاة الحداثة فيقررون أن الإنسان ذاته هو الأولى برعاية هذه الحقوق، وأما الإسلام فيؤكد أن رعاية هذه الحقوق هي لمن بيده الملك والأمر، وهو الذي استخلف الإنسان على هذه الأرض ومتعه بالسيادة فيها. [3]

إن سيادة الإنسان وحقوقه في الإسلام هي خلعة إلهية وتكريم رباني، وأما في النظم الوضعية فهو حق ذاتي له، استوجبه بذاته ولذاته، ودون فضلٍ لأحدٍ عليه. وقد اقتضى ذلك أنه في هذه النظم الحديثة فإن الإنسان هو الذي يشرع لنفسه ولبني جنسه، وأما في الإسلام فإن الإنسان مُستخلَف ومُكرَّم بخلعة التسويد، وعليه أن يقابل ذلك بالخضوع والعبودية لمن بيده الملك والخلق والأمر. [4].

---

(2) راجع: لأستاذنا العلامة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – "أيهما أقدر على حماية حقوق الإنسان الله أم الإنسان؟ "محاضرة ألقيت في لندن. ط: دار الفكر – دمشق.

(3) انظر المصدر السابق ص 9.

(4) انظر السابق ص 13 – 14.

المبحث الثاني

مفهوم الأخلاق في الفلسفة الإسلامية والغربية

المطلب الأول: مفهوم الأخلاق في الفلسفة الغربية:

أولاً - الفلسفة اليونانية :

إن الإنسان إذا لم يتشبع بالعبودية الخالصة لله عز وجل فإنه يمكن أن يجازف بأي تصرف، ويبرر كل رغباته وأهوائه بالفلسفة أو بالعلم أو بالعقل أو حتى بالدين.

وما يحصل اليوم في العالم المعاصر من ظلم وقهر وعدوان واستعمار لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يمارسه الإنسان المتعبد المؤمن، فما هو إلا نزوات وأطماع، وغرائز وأهواء انساق إليها الإنسان بسائق من الأنانية والطمع والجشع، أو هو استكبار وتفرعن تملك الأنفس المتمردة، وطغيان وجبروت استحوذ على الذوات المتجردة عن كينوناتها الإنسانية.

إن العالم الذي يوصف بأنه عالم متحضر اليوم هو الذي يمسك بزمام العالم على المستوى المادي المشاهد والملموس، وهو الذي يتحكم بمصير الحياة البشرية كما يبدو، وكما نلاحظ فإن العولمة التي تُطرح أو تُفرض ما هي إلا نتاج فلسفة نمت وترعرعت في ذلك الوسط من العالم، وإذا تأملنا في تاريخ هذه الفلسفة فإننا سنجد أنها تقوم - في أغلبها- على مبدأ الأخلاق النفعية، فليس هناك أي قيمة ذاتية للأخلاق وإنما تنبع قيمتها من مدى ما تحققه من أغراض على مستوى المادة أي الحياة المنظورة.

وسنحاول نحن هنا أن نُطل بشكلٍ موجزٍ على تاريخ الأسس الفلسفية للأخلاق في الغرب منذ أقدم عصورها إلى اليوم، ثم ننظر في الانعكاسات الواقعية التي نتجت عن هذه الفلسفة، ونبدأ بالسوفسطائيين[5] الذين أقاموا الأخلاق على ثلاثة أسس هي:

---

(5) معنى سوفسطائي كان في بداية إطلاقه يعني معلمي الحكمة وكان الناس يفهمون من هذا اللفظ ما نفهمه نحن من لفظ أستاذ جامعي ولم يكن له معنى مُحط بالكرامة حتى قام النزاع بين الدين والفلسفة فهاجمهم أفلاطون وعزا إليهم تهمة السفسطة أي التفلسف بغية المكاسب والمال، وظل هذا الوصف لصيقاً بهم إلى يومنا هذا، ومما عزز لصوق هذا الوصف بهم أنهم كانوا يتقاضون مبالغ باهظة من الأجور مقابل تدريس المنطق والبلاغة والخطابة ولم يكن يطيق هذا إلا الأغنياء فكان جمهور الناس حانقين على هذا الواقع. وكان من أشهر شخصياتهم: بروتاغوراس وغورغياس انظر: ول ديورانت - قصة الحضارة – المجلد

1 – القوة: فالحق هو القوة، والقانون من اختراع الضعفاء ليخدعوا به الأقوياء[6].

2 – اللذة: فالغاية الأساسية للأخلاق هي تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة.

3 – النسبية: فكل ما تراه أنت حقاً فهو كذلك بالنسبة إليك، وكذلك كل ما أراه أنا فهو كما أراه. [7].

وكان للسوفسطائيين بذلك دورٌ كبيرٌ في تدهور الأخلاق اليونانية وقد كان تفسيرهم للأخلاق بهذا الشكل ضربة زلزلت قواعد الأخلاق، كما أن قولهم بالنسبية المطلقة إن كان قد رفع من مستوى اليونان العلمي والثقافي إلا أنه لم يدفع الناس إلى التواضع بل أغرى كل إنسان أن يجعل من نفسه معياراً للحق والباطل والتقدم بل معياراً للقانون الأخلاقي، كما أن تفسيرهم للأخلاق باللذة دفع من جديد دفعة أخرى نحو تقويض الدعائم الأخلاقية اليونانية، وأضحت الأخلاق وهماً وخرافة[8] .

ثم جاء بعدهم أفلاطون فأقام الأخلاق على أربعة أسس:

1 – المعرفة: وتتكون من المعرفة الحسية والمعرفة العقلية. وإن كانت المعرفة العقلية هي أساس السعادة والأخلاق الفاضلة [9].

2 – الحاجة أو المنفعة: الحاجة هي أساس الدولة عند أفلاطون وعند فلاسفة اليونان عموماً إذ إنَّ الأخلاق ضرورية من أجل استقامة الدولة، ولحاجة الناس بعضهم إلى بعض [10].

3 – القوة: ولذلك لا مكان في جمهورية أفلاطون للضعفاء والمعوقين والمشوهين وعلى الدولة أن تتخلص من هؤلاء لأنهم يشكلون عبئاً عليها.

4 – العنصرية: وهي مسألة لم يستطع فلاسفة اليونان التخلص منها، ولذلك أجازوا لليوناني أن يسترق الأجناس الأخرى ومنعوه من استرقاق اليوناني، وأجازوا للدولة اليونانية أن تبيد الدول الأجنبية، في حين عليها أن تترفق بالمقاطعات اليونانية المتحاربة معها، واليوناني ممزوج بالذهب بينما بقية الأجناس ممزوجة أمَّا بالنحاس أو بالفضة[11].

الرابع الجزء السابع ص 211-212. وانظر للدكتور مصطفى النشار – تاريخ الفلسفة اليونانية من منظـور شـرقي – ص: 33 وانظر أيضاً: يوسف كرم – تاريخ الفلسفة اليونانية – ص: 58 – 59.

(6) انظر: ول ديورانت قصة الحضارة 7/ 216. وانظر: ول ديورانت - قصة الفلسفة ص 8، 24.

(7) انظر: ول ديورانت - قصة الحضارة 7/ 214. وانظر: أحمد أمين، زكي نجيب محمود – قصة الفلسفة اليونانية، ص: 96.

(8) انظر: ول ديورانت - قصة الحضارة 7/ 218 - 219. وانظر: للدكتور عبد المقصود عبد الغني - الأخلاق بين فلاسـفة اليونان وحكماء الإسلام ص 55 فما بعد.

(9) انظر: زكي نجيب محمود وأحمد أمين – قصة الفلسفة اليونانية ص: 174.

(10) انظر: يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية ص 117.

(11) انظر: السابق – ص 135.

وما تعريف العدالة عند أفلاطون؟ إن العدالة هي أن يملك الإنسان ويفعل ما هو ملكه[12]. وعلى هذا فالحاكم له أن يتصرف بملكه كما يشاء، والقوي له أن يفرض قوته وسيطرته وعنفوانه على الآخرين وأن يسترقهم إذا تمكن من ذلك.

وعند أفلاطون هناك أناس ولدوا ليكونوا أرقاء وأن الرقيق يستحق مصيره لأنه لا يصلح إلا له. وعند أرسطو بعض الشعوب أذكياء وتنقصها الشجاعة وبعضها شجعان وينقصها الذكاء أمَّا اليونان فقط فهم الذين يجمعون بين الذكاء والشجاعة [13].

ثم جاء بعد ذلك أبيقور فلم يكتف بأن عَدَّ اللذة هي غاية الأخلاق وإنما عَدَّ اللذة هي الخير المطلق أو هي الخير الأول وهي هدف الحياة وغايتها [14]. صحيح أنه يعد اللذة المرادة ليست اللذات الحسية فقط وإنما اللذائذ العقلية هي الأهم والأولى، ولذة المعرفة والعلم، ولكن عدم إيمانه بالألوهية والخلود يجعل من هذه اللذائذ لا قيمة لها بنظر غالبية الناس، بل ربما غالبية الفلاسفة أيضاً، ولذلك جاء أشهر تلاميذه مترودوروس اللمبسكي فيما بعد فلخص الأبيقورية بقوله : " إن كل الطيبات ذات صلة بالبطن " ولعله يقصد أن الملاذ أغلبها جسدية [15].

ثم تنتهي رحلة الفلسفة اليونانية بالشكاك الذين أعلنوا عجز العقل عن الوصول إلى اليقين، ولم تكن فلسفتهم هذه سفسطة كما كانت لدى أسلافهم السوفسطائيين، وإنما أعلنوا أن الشك هو المعتقد النهائي، بمعنى أن الشك لم يعد وسيلة، أو طريقاً للوصول بعد ذلك إلى اليقين، ولم يعد مرحلة مؤقتة ينتقل الإنسان بعدها إلى المبدأ الراجح، وإنما أصبح الشك هو نهاية العقل ونهاية البحث والمعرفة، ومن أبرز أساطين مدرسة الشك اليونانية : " بيرو " وكانت ولادته 360 ق.م، ومن مأثور قوله: لست أدري، ولست أدري أني لا أدري،كما يُعد كلٌّ من كارنيادس وإنيسيديموس من أشهر الشكاك في ذلك الوقت [16].

---

(12) انظر: ول ديورانت - قصة الفلسفة ص 53.

(13) انظر: ول ديورانت – قصة الحضارة – المجلد الرابع الجزء الثامن ص 171 . وانظر: للدكتور عبد المقصود عبد الغني - الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص 98، 144 . وانظر: أحمد أمين وزكي نجيب محمود – قصة الفلسفة اليونانية – ص: 176.

(14) انظر: ول ديورانت - قصة الحضارة المجلد الرابع الجزء الثامن ص 171 وانظر: د. عبد المقصود عبد الغني - الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص149. وانظر: زكي نجيب محمود وأحمد أمين – قصة الفلسفة اليونانية ص: 302.

(15) انظر: ول ديورانت - قصة الحضارة – المجلد الرابع الجزء الثامن ص 174.

(16) انظر: أحمد أمين وزكي نجيب محمود – قصة الفلسفة اليونانية ص:306 - 309.

ثانياً - الفلسفة الغربية الحديثة :

سوف نقفز قفزة مديدة نتجاوز مدة ألف سنة هي مدة العصر الوسيط التي تعدّها أوربا مدة ظلام في تاريخها لنطل الآن على عصر النهضة وعصر التنوير، ثم عصر الحداثة، وسنحاول أن نبحث عن مبتغانا في الأساس الذي تقوم عليه الأخلاق في هذه الفلسفة التي وسمت بأنها فلسفة النهضة، وفلسفة الأنوار وهي التي أنتجت بعد ذلك الحضارة الحديثة.

ونبدأ بأقدم وأعظم فلاسفة التنوير وهو مكيافللي 1469 – 1527 م :

1 - وجه مكيافللي ضربة قوية للأخلاق المسيحية لأنها بنظره أوهنت من عزيمة الإنسان وأسلمت الدنيا لأهل الجرأة والعنف[17]، ولذلك فهو يفضل الوثنية على المسيحية لأن الوثنية بنظره تمجد الصحة والجاه والقوة وتضفي هيبة على القادة والأبطال، في حين المسيحية تحض على التواضع والضعف[18]. وهكذا بعد ألف سنة من سيادة المسيحية التي رفعت شعاري المحبة والتواضع حين قال المسيح عليه السلام: "من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر"[19] يعود مكيافللي ليستعيد مبدأ السوفسطائيين والإغريق عموماً في تعميق أخلاق القوة.

2 - والأساس الثاني للأخلاق عند مكيافللي هو أن الغاية تبرر الوسيلة[20]، ولذلك يجب على الحاكم بنظره أن يكون ماكراً مكر الذئب، ضارياً ضراوة الأسد، غادراً غدر الثعلب، وأن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يحسن استخدام مبدأ فرق تسد، من أجل المحافظة على سلطانه ولكن عليه في الوقت نفسه أن يكون ماهراً في إخفاء صفاته المرذولة، بارعاً في الرياء وإظهار الصفات الحميدة، بل وحتى التدين الشديد[21]. وعليه أن يعلم أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية كالأعمال الشريرة، ولذلك إذا أراد الأمير أن يحافظ على سلطانه فعليه أن يرتكب بعض الشرور والآثام[22]، أمَّا الرجال البارزون في المستعمرات أمَّا أن يستمالوا وإما أن يبادوا[23]،

---

(17) انظر: كافين رايلي« الغرب والعالم » ص 13 ترجمة: د. عبد الوهاب المسيري و د. هدى حجازي - عالم المعرفة – الكويت . وانظر: « تاريخ الفلسفة الحديثة » يوسف كرم ص 25.

(18) انظر « كافين رايلي - الغرب والعالم ص16 وانظر: رمسيس عوض «الإلحاد في الغرب » ص 50 – دار سينا للنشر – القاهرة – مؤسسة الانتشار العربي – بيروت – الطبعة الأولى 1997م.

(19) إنجيل متى 5: 39 .

(20) مكيافللي - الأمير ص 91.

(21) مكيافللي - الأمير ص 90،91، 98. راجع أيضاً: كافين رايلي - الغرب والعالم " - ص 13 و برتراند رسل - تاريخ الفلسفة الغربية ص 28 .

(22) مكيافللي - الأمير ص 97.

(23) مكيافللي - الأمير ص 26.

ويدعو مكيافللي المستعمر إلى التخريب فهو الوسيلة الوحيدة للإبقاء على المستعمرات تحت السيطرة، فمن يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضي عليه [24]. وهو فقط ينصح المستعمرين أن تكون جرائمهم وإباداتهم بتخطيط وتدبير يمكّنهم من جني الفوائد مدة طويلة وإسكات الشعوب إلى أمد بعيد [25]، وبالطبع هذا ما مارسه الاستعمار قديماً في الجزائر وليبيا ومصر وسورية وهو ما تفعله اليوم أمريكا في العراق وأفغانستان.

ولذلك فإن الطغاة والجبابرة اعتنوا بقراءة كتاب مكيافللي واحتفظوا به وتتلمذوا عليه فقد كان موضوعاً لرسالة الدكتوراه لموسوليني، وكان هتلر يضع هذا الكتاب بالقرب من سريره ويقرأ فيه كل يوم قبل أن ينام، وكذلك فإن كلاً من لينين وستالين تتلمذا عليه [26]، أمَّا الحكام العرب فيشرفهم أنهم تلاميذ مخلصون ونجباء ومتفوقون في مدرسة أستاذهم مكيافللي.

وأعتقد أن نظرة تأمل في السياسة العالمية اليوم تبيّن للعاقل أنها محكومة بهذه الأخلاق المكيافللية التي تزيد القوي قوة والضعيف ضعفاً.

هذه الأخلاق الثعلبية المكيافللية اكتملت بعده بقرن من الزمان حين آزرتها ذئبية توماس هوبز 1588 – 1679م، فإذا كان مكيافللي قد اجتر من الفلسفة اليونانية أخلاق القوة السوفسطائية وأضاف إليها أن الغاية تبرر الوسيلة، فإن توماس هوبز قرر أن يجتر من الفلسفة اليونانية الأخلاق الأبيقورية القائمة على مبدأ اللذة، وأضاف إليها سيكولوجيا الأنانية[27]، وتناول ذلك تحت عنوان الذئبية الإنسانية، فعدَّ الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان[28]، فإن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، فالأخلاق يجب أن تقوم على المادة والمنفعة وأخلاق السوق [29].

إلا أن أبرز ممثل لأخلاق القوة في الفلسفة الغربية الحديثة هو فريدريك نيتشه 1844 – 1900م الذي اجتمع لديه كل ما كان من تراث فلسفي سابق يحض على القوة ويدعو إليها، فضلاً عن تأثره الشديد بنظرية داروين في الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأقوى[30]، فطرح نيتشه مبدأ الإنسان الأرقى أو

---

(24) مكيافللي - الأمير ص 37.

(25) مكيافللي - الأمير ص 54.

(26) انظر مقدمة المترجم لكتاب الأمير لمكيافللي ص 5.

(27) انظر: إمام عبد الفتاح إمام – توماس هوبز فيلسوف العقلانية ص 300، 261.

(28) السابق ص 304، 297.

(29) انظر: كافين رايلي - الغرب والعالم ص 40، وروبرت أغروس - العلم في منظوره - ص 79، 80 .

(30) انظر: نيتشه - هكذا تكلم زرادشت – ص: ن [المقدمة].

الأقوى أو المتفوق[31] واستوحى ذلك من فلسفة زرادشت، واستعان بعلم الأحياء الداروينى، وأُعجب جداً ببسمارك ونابليون.

ويُعدُّ نيتشة صاحب الإعلان الشهير عن موت الله سبحانه وتعالى[32]، لأن وجود الله سبحانه وتعالى بنظره يحول دون تأكيد الإنسان لذاته[33]، ولذلك كان يقول " لو كان هناك إله فكيف أطيق أن لا أكون إلهاً"[34] .

وسخر من الضعفاء والفقراء الذين يحسبون أنهم صالحون، لأنهم لا يملكون مخالب لينشبوها في أعناق الآخرين، وحارب كسلفه مكيافللي المسيحية لأنها تحض على أخلاق الرقيق، وأخلاق العبيد كالحب والتسامح والغفران والتواضع[35] ""ما يمنع مسيحيي اليوم من أن يحرقونا ليس هو الحب بل لأن هذا الحب لا حول له ولا قوة"" [36]، وقال عن العهد الجديد بأنه إنجيل إنسان من نوع وضيع، وكان مثله الأعلى في الحياة الإنسان المتحجر القلب، المتجرد من العواطف، الذي لا يعرف الشفقة أو الرحمة[37] . وكان يرغب بالقضاء على الملايين من الضعفاء والفقراء والمعوقين، لأنه لا يؤمن إلا بالبطل[38] وبأخلاق القوة كما كان أفلاطون يحلم في جمهوريته المثالية[39].

وهكذا ففي نظر نيتشه حفنة من القوة خير من كيس من الحق، وإن الضعفاء الذين يُسمون عدم الأمانة خيانة وعاراً، والقوة ظلماً، يعبرون بذلك عن عجزهم وضعفهم وهوانهم، وإن من يريد الحياة يجب أن يسمح لرغباته بالانطلاق إلى أبعد مدى، أمَّا الأمانة والعدالة والوفاء فليست من أخلاق الرجال الأبطال، وإنما من أخلاق العبيد[40].

إن القوة هي الفضيلة الأساسية بنظر نيتشه، والضعف هو النقيصة الوحيدة، وإن الحكم الفصل في جميع الخلافات ومصائر الأمور هو القوة لا العدالة، وهكذا كان بسمارك يقول: "إنه لا محبة للغير بين

---

(31) انظر: السابق ص 240، 241، 65، 72.

(32) انظر: السابق ص240، 76.

(33) انظر: السابق ص:72 - 73.

(34) انظر: فؤاد زكريا – " نيتشه " ص: 40.

(35) انظر: نيتشه - هكذا تكلم زرادشت– ص:182،175،174.وانظر أيضاً: نيتشه –ما وراء الخير والشر –ص: 79، 84.

(36) انظر: نيتشه –ما وراء الخير والشر – ص: 109.

(37) انظر: نيتشه - هكذا تكلم زرادشت - ص 74 – 76.

(38) انظر: السابق ص 100.

(39) راجع أيضاً المصادر الآتية فؤاد زكريا:- " نيتشه " - ص 130 – 40 – 99 – 101 – 102، ول ديورانت -قصة الفلسفة - ص 24 – 526 و برتراندرسل - تاريخ الفلسفة الغربية – ص 401، 403، 398 .

(40) انظر: ول ديورانت - قصة الفلسفة : ص 25.

الأمم، وإن قضايا الدول الحديثة لا ينبغي أن تقررها أصوات الناخبين ولا بلاغة الخطب، وإنما الدم والحديد[41].

كان بسمارك إذاً رمزاً لهذه الأخلاق النيتشوية، وإذا كان نيتشة هو فيلسوف القوة فإن بسمارك كان سياسيّ القوة.

ومن هنا تم رفض المسيحية لدى هؤلاء، لأنها كما هو معلن عنه ديانة الحب والسلام، وهي بنظر فلاسفة وسياسيي القوة لا تصلح لتبرير القوة العسكرية، والفصل الحديدي، ولذا فإن بسمارك الذي فرض سيادته على النمسا، وأخضع فرنسا في شهور قليلة، ودمج الدويلات الألمانية في امبراطورية عظمى، لم يكن يؤمن بأخلاق الحب والتسامح والتواضع، ومن هنا تم استبدال "السوبرمان" أو "الإنسان الأعلى" إله نيتشه الجديد بإله المسيحية. ""إن أقوى وأسمى إرادة للحياة لا تجد تعبيراً لها في الصراع البائس من أجل البقاء ولكن في إرادة الحرب، وإرادة القوة وإرادة السيادة [42]. **وهذا ما تحاول أمريكا اليوم أن تفرضه على العالم.**

ماتت الآلهة جميعها بنظر نيتشه وأتاحت الفرصة للإله الجديد السوبرمان أي الإنسان الأعلى. وقد كتب نيتشة كتابين أحدهما "ما وراء الخير والشر" والثاني "تاريخ تسلسل الأخلاق" وكان يرجو في هذين الكتابين تدمير الأخلاق القديمة القائمة على المحبة والصدق والتواضع لتحل محلها أخلاق الإنسان الأعلى، الإنسان المتأله المتفرعن المتغطرس الذي لا يؤمن إلا بالقوة والبطش [43]. **ولذلك كان نيتشة شديد الإعجاب بنابليون الذي تسبب في قتل الملايين من الرجال" يا له من منظر رائع عندما قدم الملايين من الأوربيين أنفسهم لنابليون من أجل تحقيق أهدافه، لقد ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر له، وراحوا يتغنون باسمه وهم يسقطون في ميدان المعركة"** [44] **ويرد على المهاجمين لسياسة نابليون فيقول: "لم يكن نابليون جزاراً، بل كان محسناً نافعاً، لأنه قدم للناس موتاً عسكرياً شريفاً، لأن الحرب أفضل علاج للشعوب التي دب فيها الضعف والترف والراحة والهوان والخسة"**[45].

لم يكن نيتشة فيلسوف القوة فقط بل كان فيلسوف العنصرية أيضاً، فقد كان يؤسس للعنصرية الألمانية التي سيتبناها فيما بعد هتلر ويكوي العالم بنارها كما تكويه اليوم أمريكا. فرأى نيتشة أن

---

(41) انظر: السابق " ص 506 .

(42) انظر: نيتشه - هكذا تكلم زرادشت ص 97. وانظر: ول ديورانت - قصة الفلسفة ص 511.

(43) انظر: نيتشه - هكذا تكلم زرادشت ص 166.

(44) انظر: ديورانت - قصة الفلسفة ص 535.

(45) انظر: السابق ص 545.

أخلاق السادة هي أخلاق رومانية، وأمَّا أخلاق الضمير والشفقة فهي أخلاق سامية، وأن الشعب الألماني يمتاز بطبيعة رزينة وعمق يبعث على الأمل في أن تنهض ألمانياً يوماً لتخليص العالم. إن ما يوجد في الشعب الألماني من فضائل الرجولة يفوق ما هو موجود في بقية الشعوب[46].

والآن ما الذي حصل لنيتشة الذي أسكرته العظمة وافترى حين صرخ بملء صوته في العالم مات الله "سبحانه وتعالى " لقد قال نيتشة ثملاً بأن المستقبل سوف يقسم الماضي إلى ما قبل نيتشة وما بعد نيتشة ولكن ما الذي حصل ؟

كان جزاءً عادلاً لمن يتمرد على كينونته وهويته، ويرفض خلعة الباري عز وجل، فقد قضى نيتشة الإحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته مجنوناً، وألعوبة بأيدي الصبيان وقد كان يرفض الضعف فأصبح الآن ضعيفاً، وكان يرفض الشفقة فأصبح مثاراً للشفقة. وكان يحلم بإبادة الضعفاء والمعوقين والمجانين وقد كانت نهايته ضعيفاً مجنوناً يعيش في المارستان، فما أعظم حكمة الله عز وجل، وما أعدل رحمته.

رأينا فيما سبق أن أسس الأخلاق الرئيسة أربعة هي: القوة، اللذة، العنصرية، والحاجة. ورأينا كيف سارت هذه الأسس مترافقة مع أصناف الفلسفة عند اليونان، وفي أوربا. وها هو فرويد يسير شوطاً أبعد بفلسفة اللذة فيعدُّ اللذة المقصودة هي اللذة الجنسية، في حين كانت تشمل كل أنواع اللذة، مثل لذة العظمة، ولذة الواجب، أمَّا فرويد فقرر أن الموجه للسلوك الإنساني هو اللذة الجنسية، وإذا علمنا أنه يعدُّ الناس أشراراً بطباعهم فإننا ندرك السر في الإباحية العابثة التي تشيع اليوم في المجتمعات الغربية[47] .

وأمَّا فلسفة القوة والحاجة فإن الفلاسفة النفعيين أمثال وليم جيمس، وجون ديوى قد تقدموا بها شوطاً آخر حين أضافوا إليهما فلسفة المنفعة" البراجماتزم "،وقالوا بأن المقياس الأول والأخير للأخلاق هو المصلحة والمنفعة الشخصية [48].

وأما فلسفة العنصرية فقد خصصها رينان أكثر، وصبغها بصبغة علمية، وألبسها مسوحاً أكاديمياً حين قرر أن الجنس السامي دون الجنس الآري في التفكير، وخصص أكثر حتى يستثني اليهود أبناء

---

(46) انظر: السابق ص 526 - 538.

(47) إذا رغب القارئ في الاطلاع على فلسفة فرويد في هذا الجانب فيراجع مؤلفاته التالية ففيها يقرر نظرياته في الدافع الجنسي: 3 رسائل في نظرية الجنس – معالم التحليل النفسي – الطوطم والتابو. وكلها مترجمة وموضحة بياناتها في قائمة المصادر في نهاية البحث..

(48) للاطلاع على فلسفة وليم جيمس، وجون ديوي في الفلسفة النفعية والبراجماتية يراجع: ول ديورانت - قصة الفلسفة ، وليم جيمس- وبعض مشكلات الفلسفة – – ترجمة: محمد فتحي الشنيطي – مراجعة: د. زكي نجيب محمود.

عمومتنا حين قرر أنه من العبث أن نتلمس لدى العرب آراء علمية أو دروساً فلسفية خصوصاً أن الإسلام قد ضيق آفاقهم وانتزع من بينهم كل بحث نظري وأضحى الطفل المسلم يحتقر العلم والفلسفة[49].

ثالثاً:عصر الديمقراطية والعولمة:

أمَّا في العصر الحديث عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان والعولمة فإن كلاً من فرنسيس فوكوياما وصموئيل هنتغتون قد تقدما بفلسفة العنصرية والقوة إلى أبعد مدى، بل إنهما يوظفان الفلسفة والواقع العالمي اليوم لتأكيد غابية الحياة الإنسانية، ووحشية الإنسان وهمجيته. وإن أي قارئ لكتاب فوكوياما يلمس أنه يتحدث عن العالم دون حساب للحضارات والأمم الأخرى وكأنها ليست موجودة، وإن وجدت فهي موجودة بمقدار ما تخدم العالم المتقدم يقول : "" البداهة التجريبية تشهد أنه منذ مئتي سنة لم تتصرف الديمقراطيات الليبرالية تجاه بعضها بشكل إمبريالي حتى لو كانت قادرة على محاربة الدول غير الديمقراطية "" [50] ثم يضيف : إن التاريخ قد انتهى لأن الديمقراطية الليبرالية قد حلت بشكل نهائي مسألة الاعتراف : السيد بالعبد "" [51] ولا شك أن النظر إلى الواقع العالمي يجعل الإنسان العاقل يضحك من هذا الكلام – وشر البلية ما يضحك – فالعالم خاض حروباً دامية ذهب ضحيتها مئات الملايين بين الدول الديمقراطية وغيرها، كذلك فإن الديمقراطية التي سادت في الدول المتقدمة بعد الحرب العالمية الثانية كانت حكراً على ذلك العالم، ولم يُسمح للشعوب الفقيرة أن تنتقل إلى الديمقراطية، لأن ذلك يهدد مصالح الدول الكبرى، ولذلك ظلت هذه الدول داعمة للاستبداد والاستعباد والقهر والقمع بكل أشكاله في الدول الفقيرة، لكي تبقى هذه الشعوب مكبوتة ومغلوبة ومنهوبة الثروات والطاقات.

فالقوة تظل هي الفيصل بنظر فوكوياما بين العالم الديمقراطي والعالم غير الديمقراطي [52]، ومن هنا يدعو إلبى منظمة تجمع الدول القوية فقط والليبرالية فقط ! وهي التي تتولى حل المشكلات في العالم بالقوة[53]، حتى ولو كان ذلك ضد رغبات الشعوب غير الديمقراطية ومصالحها، فهي شعوب ساذجة متخلفة فقيرة لا تدرك مصالحها.

---

(49) انظر: إرنست رينان - ابن رشد والرشدية ص: 15. وانظر: د. إبراهيم مدكور - في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق 1 / 16.

(50) انظر: فرنسيس فوكوياما – نهاية التاريخ ص: 30.

(51) انظر: السابق ص: 31.

(52) انظر: السابق ص: 260.

(53) انظر: السابق ص: 263.

والمشكلة أن هذه التقسيمة الفوكوية تتقنع تحت ستار الفلسفة وتحشد كثيراً من المتون الفلسفية القديمة والحديثة لتبرير هذا الفصل العنصري بين الشرق والغرب، بين عالمين أحدهما متحضر وآخر همجي، إنه سعي فلسفي حثيث لتبرير الإمبريالية والإبادة والإقصاء وإخراج معظم العالم من التصنيف البشري وحصره في بقعة ما من كوكب الأرض [54]**، إنها ذات مختلف الأحكام الاعتباطية الكبرى التي شكلت عنف الأسطرة والأدلجة وبررت مذابح الماضي وكوارث الإنسانية، وفي كل مرة تسمي انتصارها على الإنسانية انتصاراً للإنسانية وكمالاً للتاريخ وإنهاءً له**[55]**، والواقع أن فوكوياما يصل إلى نتيجة مفادها أن أفلاطون وروسو وهيغل ونيتشه هم آباء حقيقيون لليبرالية المتوحشة المنفلتة والممثلة في تاتشر وريغان وبوش** [56]**. وبهذا تكون أطروحة فوكوياما تمثل تراجعاً خطيراً في صعيد المفهمة الحداثية، إلى أطروحة هوبز، وتشكل من جديد مرة أخرى انتصاراً لذئبية الإنسان**[57]**، وينتهي فوكوياما إلى تأسيس الفصل النهائي بين عالمين: عالم الإنسان الأبيض، والإنسان المتخلف، والعلاقة بينهما علاقة الإخضاع بالقوة فالموعودون بجنة نهاية التاريخ هم القبيلة البيضاء والشقراء وربما الصفراء، أمَّا الآخرون فلم يعد تصنيفهم في خانة المتخلفين يكفي للتعبير عن رحلة التصفية الأخيرة، لأن هذا سيظل يشكل عبئاً للإنسان الأبيض. المطلوب هو القطيعة المطلقة بين سكان الجحيم التاريخي المحكومين بمصيرهم، والنخبة الفائزة بالنعمة الخلاصية وحدها من دون العالمين !!** [58]**.**

هذه القطيعة لا بدَّ منها وخصوصاً مع الشرق الإسلامي ""لأن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي وضعت استمرار الغرب في شك، وقد فعلت ذلك مرتين على الأقل، الاستيلاء على القسطنطينية 1453م، ومحاصرة فيينا عام 1529م،وإن أسباب هذا النمط من الصراع لا يكمن في ظاهرة التحولات المسيحية في القرن الثاني عشر أو أصولية القرن العشرين الإسلامية، بل إنها تنبع من طبيعة الديانتين والحضارات المؤسسة على مبادئهما "" [59]**.**

---

(54) انظر: السابق ص: 13مقدمة المترجم مطاع صفدي.

(55) انظر: السابق نفسه.

(56) انظر: السابق نفسه.

(57) انظر: السابق ص 16 مقدمة المترجم.يقول مترجم كتاب فوكوياما الأستاذ مطاع صفدي إن فوكوياما بذلك ينتهك متونه الفلسفية التي يقف عليها، والواقع أن الفلسفة الأوربية في تياراتها الأقوى سواء في الحقبة اليونانية أو الحقبة الحديثة قد ناصرت العنصرية الإمبريالية ووقفت دائماً إلى جانب الأقوى.

(58) انظر: مقدمة مطاع صفدي لكتاب نهاية التاريخ ص: 18 -19 ولا بدَّ من التنويه هنا إلى أن الأستاذ مطاع صفدي كتب مقدمة رائعة ومميزة للكتاب نابعة من شعور ممتاز بالمسؤولية الإنسانية والعلمية والحضارية تجاه الإنسان كإنسان، فله كل الشكر والامتنان وبارك الله في جهده وعلمه.

(59) صموئيل هنتغتون – صدام الحضارات ص: 38 والكلام لبرنارد لويس ينقله عنه هينتغتون. وانظر أيضاً ص: 371.

هذه إذاً هي أسس الأخلاق في الفلسفة الغربية على مر التاريخ وهي الأسس التي انتصرت وسادت: القوة – اللذة – المنفعة – العنصرية، فهل كان لهذه الأسس صدى في الواقع العالمي بالأمس واليوم ؟ إن الأخلاق الأبيقورية والمكيافللية والنيتشوية هي التي جعلت بسمارك ونابليون لا يباليان بملايين الجنود الذين يموتون في سبيل تحقيق العظمة، وفي سبيل نشوة القوة، والشعور بالمجد، وإن أخلاق المنفعة والقوة والعنصرية هي التي دفعت الاستعمار في القرون الماضية إلى بلادنا لنهب خيراتها وثرواتها، وجعلته يبني أمجاده وثراءه ورفاهيته وحضارته على حساب فقرنا وامتصاص دمائنا.

وإن فلسفة القوة والمنفعة والعنصرية هي التي دفعت هتلر إلى إبادة ملايين البشر من اليهود والغجر والمعوقين والمسنين لأنهم عُدُّوا أفواهاً مستهلِكة غير منتِجة، وعُدَّ ذلك إنجازاً عقلانياً لأنه حرر النازية من أية أعباء أخلاقية مثالية، وتعاملت مع البشر بكفاءة بالغة وبمادية صارمة كما لو أنهم مادة استعمالية نسبية تخضع لقوانين الطبيعة والمادة. وكذلك فعل ستالين حين أباد ملايين من الفلاحين الكولاك في إطار دراسة علاقات الإنتاج ومعدلات النمو، لأن هؤلاء كانوا يعوقون عملية الإنتاج الحتمية [(60)].

كان المسؤولون في إدارات هتلر وستاليني يتحدثون عن الإبادات الجماعية ببرود شديد كما يتكلم رجل الأعمال عن ميزانيته ولم يكن في حديثهم أي أثر للعاطفة أو الشفقة يقول شبيير مهندس هتلر الأول: "إن تركيزي المرضي على الإنتاج وإحصاءات الناتج طمس عندي جميع المشاعر والاعتبارات الإنسانية"[(61)].

وفلسفة القوة هي التي دفعت أمريكا إلى إلقاء قنابلها النووية على هيروشيما وناغازاكي دون حساب لأي اعتبارات إنسانية، لأن الرغبة في السيادة والسيطرة جعلت الاعتبارات الإنسانية مرجأة، وهي التي جعلتها تقتل في فيتنام ثلاثة ملايين فيتنامي. وهي التي جعلتها قبل ذلك تبيد شعباً بأكمله هم الهنود الحمر، لتحل محله في أرضه ووطنه. وهي التي دفعت بريطانيا لإبادة ثلاثة أرباع الشعب الأسترالي. ودفعت فرنسا لإبادات جماعية وإحراق مدن بأكملها، وإبادة مليون ونصف إنسان في الجزائر.

هذه الفلسفة هي التي تسود اليوم في العالم، ومن هنا فإن منظر الفلسطينيين حين نشاهدهم مكبلين مصفوفين على الجدران، أو جاثين على الركب، أو منبطحين على الأرض، أو يُركلون بالأقدام، وإن منظر الأشلاء المتناثرة، والجثث المتفحمة، وبقع الدم الحمراء، هذا المنظر هو مصدر ألم لنا، بل

---

(60) انظر: د. عبد الوهاب المسيري موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية 1 / 77.

(61) انظر: كافين رايلي – الغرب والعالم ص 2 / 294.

مصدر شقاء متواصل كل يوم، ولكنه بالنسبة إلى شارون وبوش وتاتشر ونيتشه وهينتغتون وفوكوياما وكل سياسيي القوة وفلاسفتها مصدر لذة وشعور بالنشوة.

وكذلك فإن منظر السجناء في سجن أبي غريب وهم عراة لا حول لهم ولا قوة، يحولهم العدو إلى أدوات بناء، أدوات للتسلية واللعب والعبث، فيصنع منهم هرماً بشرياً عارياً للتسلية كما يتسلى أحدنا بأعواد الكبريت، وإن منظر تلك المرأة التي تجردت من أنوثتها وهي تجر بحبل ذلك العراقي كما يجرون كلابهم، ومنظرها كذلك وهي تعبث بأعضائه وهو عار، كل ذلك مصدر ألم لكل إنسان فيه ذرة إنسانية، ولكنه مصدر لذة وشعور بالمتعة والنشوة للإسرائيلي أو الأمريكي الذي تشبع بأخلاق العنصرية والكراهية.

المبحث الثالث

سؤال الأخلاق في الرؤية الإسلامية

في هذا المبحث نطرح عدداً من الأسئلة المتعلقة بالأخلاق في المنظومة الإسلامية : فهل الإسلام ضد القوة؟ وهل هو ضد اللذة؟ أو المنفعة ؟ أو العنصرية ؟

المطلب الأول: هل الإسلام ضد القوة ؟ :

مما لا شك فيه أن الإسلام هو دين القوة فقد قال سبحانه وتعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)[سورة الأنفال آية 60] ولا بدَّ هنا من ملاحظة أن الآية الكريمة تشمل كل أنواع القوة، بما في ذلك القوة العسكرية والمادية والجسدية والرياضية، فضلاً عن القوة المعنوية والنفسية، وخصوصاً أن الآية الكريمة تلفت النظر مباشرة إلى جانب من جوانب القوة النفسية وهو الانتصار على عنصر الشح والبخل الذي لا ينفك عن النفس البشرية، والدعوة للتغلب عليه بالإنفاق في سبيل الله وتعويد النفس على البذل والعطاء.

كذلك نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم يمتدح المؤمن القوي فيقول: "" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ"". [62] لكن علينا أن ندرك أن المؤمن فيه خير حتى ولو

---

(62) صحيح مسلم – باب: في الأمر بالقوة باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله رقم: 2664. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "" الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ

كان ضعيفاً، ففي الحين الذي تريد الفلسفة الغربية التخلص من الضعفاء والفقراء، وإبادتهم وقد فعل الغربيون ذلك في إفريقية وفي البلاد العربية والإسلامية، فإن الإسلام يعدُّ الحياة لا تخلو من الضعفاء والفقراء، والضعف والفقر لا يلغيان إنسانية الإنسان وكرامته بل فيهما خير وقد يكون خيراً عظيماً. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((رُبَّ أَشْعَثَ أغبرَ مَدْفُوعٍ بالأبْوابِ لَوْ أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ)) [63].

وعلم أصحابه كيف يحترمون الضعفاء والفقراء حين سأل ذات يوم عن امرأة سوداء فقيرة كانت تقم المسجد، فقالوا ماتت، فقال: أفلا كنتم آذنتموني؟ فكأنهم صغّروا أمرها، فقال: دلوني على قبرها، فدلوه فخرج فصلى عليها[64].

وهكذا فالقوة في الإسلام مكبوحة بالرحمة والإنصاف والعدل مكبوحة بالأمانة "القوي الأمين" (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) [سورة القصص آية 26]، والفرق بين المنظور الإسلامي للقوة والمنظور الفلسفي الغربي هو أن القوة في الإسلام للردع، لردع الشر والأشرار، ولردع الباطل، أمَّا في الفلسفة الغربية فكما رأينا القوة هي الفرعنة والغطرسة والتألّه، وهي ليست لخدمة الإنسانية، وإنما لخدمة لون من ألوان الإنسان هو الإنسان الأبيض. إن القوة في الإسلام نوعان : قوة مادية عسكرية، وقوة معنوية هي الأمانة، والثانية هي الحاكمة على الأولى والموجهة لها، تحفظها من الطغيان، وتمنعها من الظلم والجبروت، وتحصنها بداعية الخوف والخشية من الله عز وجل، في حين القوة الغربية مدفوعة بدافع الغرور والأنانية والتمرد والتفرعن.

المطلب الثاني: هل الإسلام ضد اللذة والمنفعة ؟ :

فقد أباح الإسلام للإنسان الاستمتاع بالطيبات من الحياة الدنيا قال عز وجل: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [سورة الأعراف: 32] وحرم عليه الفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [سورة الأعراف آية: 33] وأمر بالتزين والاستمتاع بالأكل والشرب دون إسراف قال جل شأنه: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا

الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ "".

(63) صحيح مسلم – رقم: 2622 باب: فضل الضعفاء والخاملين.

(64) صحيح البخاري رقم: 446 باب: كنس المسجد.وصحيح مسلم رقم: 956 باب:الصلاة على القبر.

وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)[سورة الأعراف آية: 31] وأباح الاستمتاع المشروع بين الزوجين، ولكنه ضبط اللذة بمعيار التوسط لا بمعيار البهيمية، ولفت نظر الإنسان إلى أصناف سامية جداً من اللذة (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[سورة السجدة آية: 17] وجاء في الحديث القدسي:""قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ.[65]"" إن الإسلام لا يحارب اللذة وإنما يهذبها ويخلصها من الانحراف والشذوذ، ويدعو إلى التوسط والاعتدال، والبعد عن الإسراف والتبذير.

كذلك حرم الإسلام الرهبانية ونهى عن التشدد والتنطع في العبادة فقال صلى الله عليه وسلم: ""لا رهبانية في الإسلام"" [66] ونهى أصحابه الذين أرادوا أن يشددوا على أنفسهم في العبادة والزهد[67].

إن الإسلام يلبي حاجات الإنسان ومنافعه بواقعية فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ""احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ""[68].

وحيثما كانت المنفعة والمصلحة فثم شرع الله، ولكنه يمزج هذه الدعوة بالإيثار والتفاني، ويحذر من الأثرة والأنانية قال عز وجل: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[سورة الحشر آية : 9] كما أن المصالح في الإسلام متراتبة بحسب الأهمية : الدين فالنفس فالعقل فالعرض فالمال، كذلك فإن مصلحة المجموع مقدمة على المصلحة الفردية، لكن الفارق الأهم بين الإسلام والفلسفة الغربية في هذه المسألة هو أن المصلحة والمنفعة في دين الله عز

---

(65) صحيح البخاري: باب ما جاء في صفة الجنة رقم: 3072. ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم: 2824.

(66) مصنف ابن أبي شيبة 9/ 263. وذكره ابن حجر في فتح الباري وقال عنه بأنه من مراسيل طاووس.- ومسند أحمد 82/3.

(67)عن أنس - رضي الله عنه -، قَالَ: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم -، فَلَمَّا أُخْبِروا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا وَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُم: أَمَّا أنا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبداً. وَقَالَ الآخَرُ: وأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبداً وَلا أُفْطِرُ. وَقَالَ الآخر: وَأَنا أَعتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبداً. فجاء رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - إِليهم، فَقَالَ: ((أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وكَذَا ؟ أَمَّا والله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ. أخرجه: البخاري 2/7 رقم: 5063، ومسلم 129/4 رقم:1401 وانظر: رياض الصالحين (تحقيق الدكتور الفحل) 1 / 116. وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: أنّ النَّبيّ - صلى الله عليه وسلم -، قَالَ: ((هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ)) قالها ثَلاثاً. أخرجه: مسلم 58/8 رقم: 2670. ((المُتَنَطِّعونَ)): المتعمقون المشددون في غير موضعِ التشديدِ .

(68) سبق تخريجه هامش رقم: 61.

وجل ليست قاصرة فقط على المنظور الدنيوي البحت بل إذا كان (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فإنه (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) [سورة الكهف آية : 46]. الأصل في دعوة الإسلام أنها دعوة إلى الآخرة قال جل وعلا : (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) ولكن الإنسان في طريقه إلى الآخرة يحتاج إلى البلاغ، ويحتاج إلى ما يتزود به دون عنت أو مشقة، ولذلك يأتي البيان القرآني مسارعاً لتطمين الإنسان إلى ضرورة ذلك وأهميته فيقول: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)[سورة القصص آية : 77].

المطلب الثالث: هل الإسلام ضد العنصرية؟

نعم إن الإسلام ضد العنصرية مصطلحاً ومفهوماً، لأن المصطلح نشأ في ظروف القتل والإبادة للآخرين، فالعنصرية جاءت من الزعم بأفضلية عنصر ما من البشر على عنصر آخر، والمقصود بالعنصر هنا الدم والتكوين البشري، فاليهود يعدُّون أنفسهم مخلوقون من عنصر بشري مميز، ليكونوا سادة على الناس،"" تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزءٌ من الله كما أن الابن جزءٌ من والده، ومن ثم كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة إلى باقي الأرواح، لأن الأرواح غير اليهودية هي أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات ""[(69)]، والبراهمة قسموا الناس إلى طبقات أسماها طبقة البراهمة، وهم رجال الدين فقد خُلقوا من رأس الإله براهما، أمَّا بقية الناس فقد خُلقوا من مناكب براهما أو من ركبتيه أو من قدميه، وكل طبقة مخلوقة لخدمة الطبقة التي تعلوها[(70)]، وأمَّا اليونان فقد مر بنا في بداية البحث كيف ينظرون إلى بقية الشعوب، وكذلك رأينا كيف أن الألماني بنظر الفلسفة النازية أرقى من سائر الشعوب، لأن دماءه من أنقى الدماء، وهكذا انتشرت فكرة العنصرية.

واليوم فإن المفاهيم المطروحة في العالم المعاصر مثل حقوق الإنسان، والديمقراطية والحرية هي مفاهيم عنصرية على مستوى التطبيق الواقعي، ولذلك فالعراق يُفتش عشرات المرات بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل، في حين إسرائيل تفخر أمام العالم بترسانتها النووية، وسلمان رشدي يدافع عنه الغرب بكل وسائله الإعلامية لأنه يهاجم الإسلام، وروجيه غارودي يُحاكم وتُصادر كتبه لأنه قال

---

(69) انظر: د. محمد عبد الله الشرقاوي - الكنز المرصود في فضائح التلمود ص: 190. والكتاب عبارة عن جزئين / جـزء حول التلمود والتعريف به، والجزء الثاني: نصوص تلمودية محققة.

(70) انظر: للشيخ أبو زهرة رحمه الله – مقارنة الأديان، الديانات القديمة ص: 40.

كلمة لم يرضَ عنها اليهود، والمرأة لها أن تلبس ما تشاء، ولكن إذا كان ذلك باسم الإسلام وتحت مبدئه وشعاره فليُخلع الحجاب في أول دولة ترفع شعار الحرية والديمقراطية، ولتداس هذه المفاهيم ما دامت تستند إلى مرجعية إسلامية، ولذلك يسخر مراد هوفمان من حقوق الإنسان حين يقول: إن حقوق الإنسان والديمقراطية لها عيون زرقاء وشعر أشقر، ويعني بذلك أنها تطبق فقط حين تكون لصالح الأوربيين.

نعم إن الإسلام يحارب هذا المفهوم العنصري، ويطرح بدلاً منه مبدأ المساواة، ويخاطب الناس جميعاً دون تمييز قال عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [سورة الحجرات آية: 13] والتكريم والتفضيل للبشر جميعاً دون تحيز لجنس أو لون (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) سورة الإسراء آية 70] ومعيار التفاضل في الإسلام ليس القوة ولا اللون أو الجنس وإنما هو التقوى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [سورة الحجرات آية : 13].، وقال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع مؤكداً ومبلغاً للناس جميعاً في وصية عالمية: ""يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟"، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ"[71]، والإسلام إذ يطرح مبدأ المساواة يطرح إلى جواره مبدأً آخر لإثارة التنافس على الفضائل بين الناس والأمم والشعوب، وهذا المبدأ هو مبدأ الخيرية (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) [سورة آل عمران آية : 110] ومبدأ الخيرية يختلف عن مبدأ العنصرية في أن هذا الثاني يقوم على أساس أفضلية العنصر والدم والتركيب الجبلّي، بينما في مبدأ الخيرية يكون المعيار هو العمل والعمران الحضاري، والأداء الإنساني، فاليهود كانوا أفضل العالمين حين عمروا الأرض بمنهج الخالق سبحانه وتعالى:(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) [سورة البقرة آية : 47] ولكنهم حين أقبلوا على أهوائهم أصبحوا من أراذل الناس وشرار الخلق ومُسخوا قردة وخنازير (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)[سورة البقرة آية 65] (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) [سورة الأعراف آية 66] والأمة الإسلامية هي خير الأمم حين

(71) شعب الإيمان 7 / 132- أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ) - تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد- مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند - الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م.

تعمر الأرض بمنهج الله عز وجل، وتؤمن بالله عز وجل وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر **(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)** وتتمة الآية تشير إلى أن الأمر ليس خاصاً بالمسلمين بل أهل الكتاب أيضاً لو فعلوا ذلك لكانوا كذلك **(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)** [سورة آل عمران آية: 110] وبهذا يظهر أن هذه الخيرية المنسوبة للأمة الإسلامية ليست مطلقة بل مشروطة بالعمل الصالح، فإذا تقاعست الأمة عن مهمتها التي كُلفت بها تكون شر الأمم وتُستبدل **(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)** [سورة محمد آية : 38] إن التفاضل في ميزان الإسلام لا يكون إلا بالعمل الصالح، وكل عمل يسهم في بناء الحضارة ورقي الإنسانية فهو من العمل الصالح الذي يكون سبباً للرفعة والعزة عند الله عز وجل .

المبحث الرابع

بين التسامح والقوة

التسامح، السلام، الحوار كلمات وعناوين لمؤتمرات تعقد في السنوات الأخيرة في بلادنا الإسلامية، بينما الثقافة السائدة في الغرب هي ثقافة صدام الحضارات، ونهاية التاريخ، ثقافة هرمجدون. وهذا إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أزمة ثقافية، وسياسية وفكرية تعاني منها أمتنا، بل يدل على تفاقم هذه الأزمة وإعضالها.

إن هذه المؤتمرات لا تخدم الواقع المرير الذي تعيشه الأمة، ولا تصحح مسارها، ولا تنير دربها في المستقبل، بل إنها حتى لا تخدم الواقع السياسي للأمة، ولا تصب حتى في مصلحة الحكومات العربية والإسلامية، لأن الغرب يعاني من مشكلة الإرهاب حقاً، الإرهاب الذي صنعه وغذّاه بالاحتلال والظلم والقتل والإبادة، الإرهاب الذي يبحث بعض الناس عن أسبابه كذباً، لأنهم يعرفون أسبابه وهي الاحتلال والقمع والاستبداد والظلم.

وحين بدأ الغرب يدفع ثمن جرائمه بردود أفعال من قبل بعض المسلمين أخذ يستنجد بالحكومات الإسلامية والعربية لتعينه في مكافحة الإرهاب، وذلك عن طريق طرحه لشعارات السلام والتسامح والتقارب، وسارع في وتيرة الترويج والدعاية فأخذت الحكومات العربية والإسلامية تجاري الرغبة الأوربية في هذا التسويق الإعلامي، وسارعت المؤسسات المختلفة والمراكز المتنوعة في طرح العناوين والشعارات التي رضيها الأوربيون، بل وأرسلوا يطلبون من بعض الحكومات العربية بعض المشايخ لتوعية الجالية الإسلامية في بريطانيا كمثال.

وكان واجبنا أن نستفيد من هذا المأزق الذي يعاني منه الغرب وأن نزيده عمقاً ونزيده تأثيراً ليكون أشد ضغطاً وأكثر فاعلية في خدمة قضايانا، وأن نُحسن استثماره لإصلاح واقعنا، والتخفيف من الثقل المُجهِض الذي يكاد الغرب أن يكتم به أنفاسنا، لكننا ونحن نختنق ونكاد نموت نسينا أنفسنا وذهبنا نجامل الغرب، ونتزلف إليه، لنخفف من وطأة مشكلة عابرة يعاني منها لجرائم هو يقترفها. والغريب أن هذه الجرائم هي احتلاله لأرضنا وقتله لأبنائنا ونهبه لخيراتنا، فأصبح حالنا معه كحال إنسان قائم على خنق إنسان آخر، والمخنوق يخدش خانقه ويخمشه، وقبل أن يُجهز الجاني على ضحيته قرر أن يستفيد منه فأخذ يسأله عن كيفية معالجة هذه الخدوش والجروح، فلم يكن من المغدور إلا أن أخذ يشرح للجاني كيف يضمد جراحه وكيف يعالجها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ثم إن المجرم وقف بعد ذلك خطيباً على جثة ضحيته وعقد مؤتمراً يدعو فيه إلى التسامح والتقارب والسلام ورفض العنف ويقول لهم انظروا إلى هذه الخدوش والجروح إنها من فعل هذا المجرم الذي أقف فوقه الآن، إنه إرهابي!!.

وقد سمعت من بعض المشايخ أن شخصاً سأله في لندن إذا كان يحق للمسلمين أن يعتدوا على أموال البريطانيين باعتبارهم حربيين فقال له: إن من يفتي بجواز ذلك شيطان !. والحقيقة أنه مع اعتقادنا بخطأ من يعتدي على أموال الناس في الدول التي تمنحهم الإقامة، إلا أن الرد من قبل الشيخ الفاضل فيه تطرف وقسوة أيضاً، بل إن فيه استفزازاً للطرف الآخر الذي يملك من الأدلة الفقهية والأصولية ما يمكنه من الاحتجاج به. ولكن الشيخ أراد أن يجامل الغرب ظاناً أنه بذلك يجمّل صورة الإسلام، والإسلام جميل، لا يحتاج إلى تجميل بالمجاملة، إن بريطانيا تنهب وتقتل في العراق، وقبل ذلك سلمت فلسطين لليهود وطردت شعباً كاملاً من أرضه. فالقول إن من يفتي بجواز الاعتداء على أموال البريطانيين شيطان مبالغة في القسوة لا تلائم واقع العدوان الذي تمارسه بريطانيا على المسلمين. ولا يغرنّك سعادتهم بقولك هذا، ولا يفرحنك اعتبارهم لك شيخاً متنوراً، فهم في باطن أنفسهم يعلمون أنهم مخادعون وأن ما تقوله هو رأي شخصي لا يلزم أحداً.

ويستدل البعض على تسامح الإسلام ورحمته بقول النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين بعد فتح مكة :" اذهبوا فأنتم الطلقاء " وقد نسوا أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال ذلك كان في موقع القوة، وأعداؤه في موقع الضعف، كان أعداؤه كلهم تحت قدميه، في موقف تشرئب الأنظار إليه، وكان من حوله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف جندي مدججين بالسلاح.

بينما نحن اليوم أراضينا محتلة في العراق وفلسطين وأفغانستان والجولان، فهل نحن اليوم في موقف يؤهلنا لأن ندعو فيه إلى التسامح أم إلى الجهاد والمقاومة بكل الوسائل، والنفير العام على كل المستويات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية، لماذا لا نعقد مؤتمراً عن المقاومة بأشكالها

المختلفة كالمقاطعة الاقتصادية، والكتابة الأدبية شعراً ونثراً، والإعلام بقنواته وصحفه وجرائده ومجلاته، أم أننا نسينا هذا السلاح الفعّال ولا نتذكره إلا حين نرى مناظر الدماء والأشلاء على الشاشات.

مشكلتنا أننا "آنيون" نغضب بسرعة، ونرضى بسرعة، فحين كانت حرب غزة وكنا نرى مناظر القتل والأطفال كنا نتألم ونبكي ونقاطع، ولكن ما إن انتهت الحرب حتى عاد كل إنسان إلى عاداته في الشراء والتفكير وأخذ الناس يتبادلون اللوم، ويتراشقون التهم. لذلك نريد مواقف مستمرة ناجمة عن قناعات ثابتة، واستراتيجيات راسخة، وليست آنية، ذلك إذا أردنا أن تكون مؤثرة ومجدية.

نحن الآن لسنا في موقف "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" وإنما في موقف "أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير". نحن الآن في موقف "واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل" و في موقف "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين".

وهل هناك في التاريخ جريمة أعظم من جريمة إخراج شعبٍ كامل من أرضه واعتقال الآلاف منه في السجون، وقتل أطفاله ونسائه على مرأى ومسمع من كل العالم الذي يزعم أنه عالم متحضر.

وشيخ آخر ينعى علينا أن نسميَ مدارسنا بأسماء الغزوات النبوية، لأن ذلك دليل على أننا نحب العنف، وأننا عدوانيين، وأننا لسنا مسالمين، لأننا نسمي مدارسنا بأسماء بدر واليرموك وحطين، كان علينا بنظره أن نسميها مدارس : السلام، المحبة، التسامح !! في حين أن طائرات الأباتشي الذكية تدك مدارس أبنائنا في فلسطين والعراق وأفغانستان فوق رؤوسهم.

إن الغرب يتعامل مع الشعوب بمنطق القوة والتفوق الأعمى، إنها فلسفات توجهه: ثعلبية مكيافللي، وذئبية هوبز، وجنونية نيتشه، الحق بنظرهم هو القوة، والبقاء للأقوى.

علينا أن لا ننسى دروس التاريخ فدروسه وعبره تبين لنا أن الشريط الوراثي لدى الحكومات الأوربية، والصبغيات الحكومية الأوربية صبغيات قائمة على المكر والخداع وغطرسة القوة. إن دروس التاريخ لا تزال قريبة منا جداً : لوزان – سايكس بيكو – بلفور – والنكبة والنكسة وحروب الخليج إلخ... كل ذلك ننساه ثم نفرح ونصفق إذا سمعنا رئيساً أمريكياً أو حتى مسئولا صغيراً يعدنا ببعض الوعود، أو يقسو على إسرائيل ببعض الكلمات. إن الغرب لا يفهم إلا لغة القوة، ولا يحترم إلا الأقوياء ولا يمكننا أن نفرض احترامنا على الآخرين إلا إذا امتلكنا وسائل القوة والتمكّن والتأثير وهو جوهر ما يأمرنا به ديننا، وتحثنا عليه عقيدتنا. وبغير القوة يكون الحديث عن التسامح والسلام

خرافة، إن القوة هي التي تصنع السلام والتسامح، وهي التي تحميه، والحق والعدالة بلا قوة كلمات ومفاهيم بلا ماصدقات، مجرد أوهام وأحلام.

لننظر إلى إيران -الآن- حين درجت في طريق القوة، وسارت في درب البناء الحقيقي، بدأ الغرب يغيّر حساباته معها، وبدأ المسؤولون الغربيون يغازلونها ويعرضون عليها الحوافز تلو الحوافز، لكن إيران ترفض ذلك، لأنها تعلم أن هذه العروض هي طعوم فاسدة ورشاوى دنيئة يُراد منها أن تظل تابعة للغرب، ومُستذَّلة، يعني كما يقول السيد لعبده: ابق عبداً لي، وأعطيك بعض الميزات على العبيد الآخرين، سأجعلك رئيس العبيد، خذ من المال ما تريد، ولا تطلب حريتك ولا تسبب لي المتاعب، لكن لنعلم أيها السادة: أن الحرية هي أقدس شيءٍ في حياة الإنسان كما قال الفاروق رضي الله تعالى عنه: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟!".

الخاتمة

وهكذا نجد أن معيار الأخلاق منذ أفلاطون إلى فرنسيس فوكومايا، وصموئيل هنتغتون على مستوى التنظير الفلسفي، ومنذ بركليز وهيرون 459 ق. م إلى نابليون وهتلر وستالين إلى بوش اليوم على مستوى الممارسة السياسية العملية كان دائماً هو : القوة والأنانية والعنصرية.

وإذا كان ذلك كذلك فما أساس الأخلاق في الإسلام؟ إنه باختصار وبكلمة واحدة طلب مرضاة الله عز وجل، وطلب الجزاء والثواب منه في الدار الآخرة، وإن الثمار الأخلاقية التي يُنتجها هذا الأساس لثمارٌ طيبة يمكن أن تحقق السعادة للبشر أفراداً وجماعات.

أخيراً لا بدَّ من القول:

إن الإنسان بطبيعته ميال إلى العاجلة، تتغلب عليه الأنانية، فلما ظهر العلم الحديث والمكتشفات الحديثة، والاختراعات العصرية، سكِر الإنسان بالعلم، وظن أنه إله هذا العالم، ووصل به الطغيان إلى درجة أنه تجرأ وأعلن موت الله سبحانه وتعالى – كما افترى نيتشه - وظن الإنسان أنه سيطر على الكون، وامتلك ناصية الطبيعة. وبالأمس لما أرسل الباري عز وجل رسالة للإنسان المتغطرس المتجبر في إعصار آسية الذي أودى بحياة ربع مليون إنسان في بضع لحظات، هز هذا الإعصار ذلك الإنسان الثمل السكران بالعلم والمادة، والمغرور بقوته، ولا يزال هذا الإعصار يهزه، ولعله يوقظه فيتذكر هويته تذكراً صحيحاً، ويقرأ حقيقته قراءة صادقة.

إن الإنسان عبد شاء أم أبى، وإنه بمقدار ما يحقق عبوديته لله عز وجل يكون سيداً مُسوَّداً، وكائناً متفرداً، وبمقدار ما يتشبع هذا الإنسان بعبوديته لخالقه عز وجل فإنه يرتفع بإنسانيته، ويسمو بهويته. هو عبد مُكرّمٌ مسوَّدٌ مُعزَّزٌ مُستخلَفٌ إن رضي بعبوديته اختياراً، وهو عبدٌ ذليلٌ ضعيفٌ مُهانٌ خائبٌ خاسرٌ إن أبى إلا أن تُفرض عليه العبودية اضطراراً، وما أجمل قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى هنا:

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثـــريّا

دخولي تحت قولك ياعبادي وأن صيّرت أحمد لي نبيّا

وصلى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع

- أغروس، روبرت أغروس - العلم في منظوره الجديد – ترجمة : كمـال خلايلـي – عـالم المعرفة الكويت عدد 134.
- د. إمام، إمام عبد الفتاح إمام – توماس هوبز فيلسوف العقلانية – دار الثقافة للنشر والتوزيع –القاهرة 1985 م / د. ط .
- أمين ، أحمد مع د. زكي نجيب محمود –- قصة الفلسفة اليونانية - دار الكتب المـصرية – القاهرة ط 2 / 1935 م.
- د. البوطي، محمد سعيد رمضان البوطي – الله أم الإنسان أيهما أقـدر علـى رعايـة حقـوق الإنسان ؟ - دار الفكر – دمشق – ط1 / 1419 هـ 1995 م.
- جيمس، وليم جيمس – بعض مشكلات الفلسفة - ترجمة : د. محمد فتحي الشنيطي – مراجعة : د. زكي نجيب محمود – وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر والتأليف والترجمة – د.ط / د. ت.
- ديورانت، ول ديورانت – قصة الحضارة – ترجمة : محمد بدران – مكتبة الأسرة – القـاهرة 2001 م – د.ط. ول ديورانت – قصة الفلسفة – ترجمة : د. فتح الله محمد المشعشع - مكتبة المعارف – بيروت ط6 – د. ت.
- رايلي، كافين رايلي - الغرب والعالم – ترجمة د : عبد الوهاب المسيري د، هدى عبد السميع حجازي ومراجعة : د. فؤاد زكريا – عالم المعرفة – الكويت.
- رسل، برتراند رسل - تاريخ الفلسفة الغربية – ترجمة محمـد فتحـي الـشنيطي – الهيئـة المصرية العامة للكتاب 1977/ د.ط.
- رينان، إرنست رينان – ابن رشد والرشدية – ترجمة : عادل زعيتـر – دار إحيـاء الكتـب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1957 م / ط 2.
- زكريا، د. فؤاد زكريا - نيتشة – دار المعارف – القاهرة 1956 / د، ط.
- أبو زهرة، الإمام محمد أبو زهرة – مقارنات الأديان، الديانات القديمة – دار الفكر العربـي – القاهرة 1991 م – د. ط.
- الشرقاوي، د. محمد عبد الله الشرقاوي – الكنز المرصود في فضائح التلمود – مكتبة الوعي الإسلامي – القاهرة 1990 م 1410 هـ - د. ط.
- عبد الغني، د. عبد المقصود عبد الغني – الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام – مكتبة الزهراء – القاهرة 1993 م د. ط.

- فرويد، سيجموند فرويد :
1 - ثلاث رسائل في نظرية الجنس – ترجمة : د. محمد عثمان نجاتي – دار القلم بالقاهرة ط 1 / 1960 م
2 - الطوطم والتابو – ترجمه عن الأصل الألماني : أبو علي ياسين – راجعه محمد كبيبو – دار الحوار للنشر والتوزيع – اللاذقية – سوريا ط 1 / 1983.
3 - معالم التحليل النفسي - ترجمة : د. محمد عثمان نجاتي – دار الشروق – القاهرة ط 7 / 1408 هـ 1988 م.
- فوكوياما، فرنسيس فوكوياما – نهاية التاريخ والإنسان الأخير – فريق الترجمة : د. فؤاد شاهين، د. جميل قاسم، رضا الشابيي – الإشراف والمراجعة والتقديم : مطاع صفدي – مركز الإنماء القومي - بيروت 1993 م، د.ط.
- كرم، د. يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة – دار المعارف بمصر 1962 د، ط.
- مدكور، د. إبراهيم مدكور – في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق – المكتب المصري للطباعة والنشر، سميركو – القاهرة 1983 م، د.ط.
- المسيري، د. عبد الوهاب المسيري - موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - دار الشروق، القاهرة ط 1 / 1999 م.
- مكيافللي – الأمير – ترجمة : أكرم مؤمن - مكتبة ابن سينا – القاهرة 2004 م - د. ط.
- النشار، د. مصطفى النشار – تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي – دار قباء للنشر والتوزيع – القاهرة 1998 م – د. ط.
- نيتشه ، فريدريك نيتشه :
1 - ما وراء الخير والشر، تباشير فلسفة للمستقبل – مكتبة الفارابي – دون بيانات أخرى.
2 - هكذا تكلم زرادشت – ترجمة فليكس فارس – الإسكندرية – مطبعة جريدة البصير، 1938 م. د.ط.
- هينتغتون، صموئيل هنتغتون – صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي – نقله إلى العربية : د. مالك عبيد أبو شهيوة، د. محمود محمد خلف – الدار الجماهيرية، ليبيا – ط1 / 1429 هـ 1999م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2009/10/4.